مجرد هدف فحسب، بل هو وسيلة لبلوغ الغايات بالتسيد والهيمنة ولفرض القوة بالتعسف والقهر ترغيبًا وترهيبًا .

فتزدري الساردة كل ما حولها من الأشياء والحيوات والأزمنة والأمكنة ولا تجد فيه ما يدل على حقيقتها، وقد غادرت الأسماء مسمياتها، وهذا ما فسرته بالرائحة التي سرت في كل شيء، فشوهت ما كانت الطبيعة قد منحته لها من خير وجمال ونقاء وانتشاء وحضور.

وبالرغم من ذلك يبقى التعطيل الذي يمارسه الرجل على المرأة إنما هو تعطيل ظاهري لا حقيقي، فهي وإن انسلخت عن الجوهر الحقيقي إلا أن بإمكانها أن تنتصر على ذلك، وإلا فإنها ستظل خائفة مستلبة قهرًا واستبدادًا، حاكمة على كل بنات جنسها بالانسلاخ، ليكون هو مصيرهن جميعًا.

وتتعمد القاصة علوية صبح توظيف المفارقة والتغريب لتؤكد أن الانسلاخ عن الكينونة الأنثوية لم يكن رهنا بفعل الرجل وحده بل هو رهن بالمرأة نفسها التي قمعت نفسها بنفسها حين قبلت بالمصير، الذي اختاره لها الرجل لتنزوي وتصمت إلى الأبد.

وهذا ما تمثل في معتقدات ألحقت بالكيان الانثوي ظلمًا من قبيل أن المرأة هي الخطيئة، وهي الغواية، وأنها الفتنة التي تشعل حرائق الثأر والإغراء، الذي قد يوقع بحبائله الآخرين، وتحاول الساردة الاستعانة بذاكرتها لتستجمع صورًا لما تقدم فتتذكر مشهد قتل الرجل لأخته المتخلفة عقليًا، لأن صاحب البيت الذي تعمل فيه قد اعتدى عليها[11].

والمفارقة أن أمها كانت راضية بفعل القتل قائلة "سلم الله يدك يا شهم"، كما يكون خبر المرأة التي وجدت مقتولة طبيعيًا عند الآخرين رجالاً ونساء، وتتغرب الأشياء في عين الساردة، إذ كيف ستكون النساء موجودات؟ وإذا وجدن فإنهن سيظهرن بلون أسود هو لون التاريخ الذي رافق انسلاخهن عن الحقيقة التي كن عليها.

والتغريب في مشهد العروس ابنة الجيران يكمن في ثوبها الأبيض ونظرتها الحزينة، وقد أطلق عليها أخوها النار، وكذلك موقف النسوة الأخريات من فعل القتل، فتضيق بالآخرين الذين يقررون طردها من السيارة التي كانت تجمعهم بها خائنين من أن تشملهم رائحتها في دلالة على رفض المجتمع لوجود المرأة، وأنهم إذ يهمشونها ولا يأبهون لهويتها وكينونتها، فالغاية لا تكون مساوية لهم.

وطردها الزماني هو طرد مكاني فثلما يرفضها التاريخ بوصفها كيانًا مؤصلاً وأساسًا يرفضها المكان أيضًا ككيان لا حاجة له وبذلك يتغير كل شيء، فلا المكان احتفظ بنقائه، ولا الزمان ظل سائرًا كما قدر له، ولا الناس مارسوا دورهم الطبيعي، وهنا تفقد الساردة ثقتها بالكيان الذكوري، الذي ما كان عبر التاريخ مشاركا لها سائدًا لقضيتها، بل ظل يمارس دور الإقصاء والتهميش..

وهذا ما أحال الواقع إلى جحيم فيه الحرب والكره والشر.. حتى تشوهت أخلاقيات الناس وخالفت الأشياء طوابعها التي جبلت وضاعت الأصول أو تلاشت، فصار القتل مشاعًا، والجريمة طبيعية، ومنظر الدماء معتادًا، ليتحول الضياع إلى رائحة، حيث كل شيء سلبي، لا ينطبع إلا بالتشوه، ولا يضوع إلا بالكراهية والقتل، ولا يعبق إلا بما هو مؤسلب وشرير.

ويكون في ظهور شخصية المتسول صاحب الأوصاف القبيحة عائقًا آخر يؤسلب حياة البطلة ملاحقًا إياها، فتحاول مراوغته، وتتغرب أفكارها، فتتمنى صدمه بالسيارة، وهذا ما أثار امتعاضها، لأن الشر قد شملها رغمًا عنها، ولأن حدسها الأنثوي قد خالفها في لاوعيها الفردي، وهذا ما يقودها إلى أن تشم فيها الرائحة نفسها التي كانت تشمها في كل مكان.

وتتعجب من هذه المشاعر السيئة، وكيف اشتاحت كيانها الوديع، فتتداعى أفكارها على شكل مونولوج" ، ولكني لماذا رغبت في قتل هذا الرجل المهزوز المخيف، ربما للشعور بالعجز، لأن كل الناس تقتل. والذي لا يقتل في المدينة لا يشعر بوجوده، ولكني للحظة أدركت سر كرهي لذلك الرجل"[12].

وتغريب صورة المتسول بأوصاف القبح والدونية انعكاس لصورة الواقع الذكوري الذي تشوه، فصار الرجال كلهم حانقون على النساء، حتى تصبح الجريمة شهامة والجمال قبحًا والجسد تلاشيًا، والمرأة تقبل بقتل المرأة ..!!

وهذا ما دفع البطلة إلى الظفر بفرصة تعيد لها كيانها ووجودها، لعلها تستطيع إعلان انتصارها لبنات جنسها، ببلوغ حريتها وعتق روحها من الانصهار في الآخر، وربما تتمكن من وأده مواجهة إياه بذات السلاح الذي واجهها به ،فالشر لا يزول إلا بالشر، والتأصيل لن تستعيده إلا بإذواء الآخر.

وتظل رائحة الطيبة سر المرأة التي كادت أن تختفي من حياتنا، فلا يعود لها وجود بعد أن تشوهت حقيقتها وانسلخت من كيانها، فصارت كيانًا متبوعًا لا يظهر إلا بمعية الرجل، ومن دونه لا وجود لها.

وهذا ما حاولت الكاتبة علوية صبح تفنيده عاملة على إعادة الهيبة للكيان الأنثوي عبر جعله موجهًا للسرد ومسيطرًا عليه، محققًا له بزوغه ولو سرديًا.

وهي بإدانتها للحيوات والزمان والمكان إنما تدين المجتمعات التي غلبها الشر والقبح وسيطر عليها الخواء والحروب، فتركها نهشًا للضياع، وكتلاً جامدة صماء بلا حياة أو إحساس لا تحمل سمات الإنسانية، وانطوى البلد على الخراب، وتشوهت معالمه بصفات بشعة وبملامح بوهيمية ثابتة.

الهوامش:

1 – رائحة المرأة رائحة المدينة من مجموعة نوم الأيام، علوية صبح الصادرة عن مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1986، ضمن كتاب القصة القصيرة النسوية اللبنانية انطولوجيا، اختيار ودراسة شوقي بدر يوسف، مؤسسة حورس الدولية، الاسكندرية طبعة أولى، 2010.

2 – م.ن/ 248

3 – م.ن/ 249

4 – م.ن/ 249

5 – م.ن/ 252

6 – م.ن/ 250

7 – م.ن/ 250

8 – م.ن/ 253

9 – ينظر: م.ن/ 249

10 – م.ن/ 255

11 – م .ن/256

12 – م.ن/254

يا يوسف صب في عيني القصيدة

أحمد تمساح
مصر

مفتتح

قلتُ لهم : في منتصف الليل
والبدر يلهو في دائرة المنتصف
القصيدة تنامُ
لغة
على حافة الجبل
وأنا الريح تمرُ على نخيل الروح ـ
على عجل

1

الحقيقة من الأزل في خدرها
ترتلُ فينا أحلام الكون
وصبابة المنشأ
تقلدُ الشمسَ شارة السفر
تنجب الحكايا والمطر
يا قلبها المفتوح كالعالم
دوخني ، أزملها في مدارها
يا يوسف صب في عيني القصيدة
أكحلُ بالضوء أهدابها
وأنامُ على صدرها كالليل

2

قلتُ لها : لكِ الضوء عند الثريا
ملحمة
فانزلي من أرض إلى أرض
أو أصعدي غيمة لكل سماء
الحقيقة أولها في الدماء
وعند الإسراء لمعتْ شارتها على
صدر الإمام
قالت : العمرُ الذى ينقضي قدام
فانهض أيها الوجع الإمام
أصعد في المدى مئذنةً
يأتيك البراح لغة وسنبلة أفركها
لليمام

خـــاتمـــــة

الحقيقة تأتى عفيةً على لسان
الرسل
كالريح تعبر الكون على عجل
تأتى في ضوء العيون .. وفى الأجل
تأتى كالنورس الذى رحل
قالت :
أصعد قمة الروح والجبل
وأرقب الكون
من ألف نافذة
تأتى بريئة كالروح أجل